البـــــاب الثانى

الموقف السياسى الداخلى فى عهد السلطان

برقوق وابنه فرج

أولا: حكومة الظاهر برقوق

(٧٨٤ - ٨٠١هـ = ١٣٨٢ - ١٣٩٨م)

تولى برقوق عرش مصر، وصار بذلك أول سلاطين دولة المماليك البرجية، وقد تصرف برقوق عند تشكيل حكومته الجديدة تصرفا حكيما، فلم يبدأ حكمه باضطهاد كبار الأمراء الترك، وإنما عمل على اشتراكهم معه فى إدارة شئون البلاد وخاصة من عاونوه في الوصول إلى السلطنة كسودون الفخرى التركى، حيث اختاره نائبا للسلطنة في مصر[١]، كما أقر يلبغا الناصرى في نيابة حلب[٢].

على أن السلطان برقوق بعد تشكيله للحكومة الجديدة ركز السلطة كلها في يده، ورغم أن الوظائف الكبرى كالأتابكية وغيرها كانت بيد أعوانه وأنصاره من الأمراء الجراكسة، إلا أنه جعل مرجع الأمراء عامة إليه وكما هو متبع في العصر المملوكى من عرض الجنود بحضرة السلطان، وهى الوسيلة التى يلجأ إليها ولى الأمر من آن لآخر لعزل المشكوك في ولائهم له، فقد لجأ برقوق إلى هذه السياسة ليتخلص من طائفة الأشرفية ــ مماليك الأشرف شعبان ــ مبررا هذا الإجراء من جانبه بأن «هؤلاء خونة قد خانوا أستاذهم الملك الأشرف، وأعانوا على قتله بشىء يسير أخذوه من المال، بعد ما عاشوا في نعمته دهرا طويلا، فلا خير فيهم[٣].

والواقع أن هذا الإجراء من جانب السلطان برقوق لم يكن الهدف منه سوى إبعاد المماليك الأشرفية وقطع مرتباتهم ليحل محلهم مماليكه الذين اشتراهم ونشأهم على الولاء له[٤].

---

(١) أبن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٠، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص ٤٧.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الظاهرة جـ١١ ص٢٣١.

(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٤٧٩.

(٤) المقريزى: نفس المصدر والجزء والصفحة، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٤٩ - ٥٠.

على أن هذا النهج الذى انتهجه برقوق وهو شغل الوظائف الحكومية الهامة بأتباعه، وترقيته لكثير من مماليكه، وحرمان المماليك الأشرفية من أرزاقهم، وإحلال بنى جنسه مكانهم، أدى إلى تخوف الأمراء الأشرفية، كما جعلهم يفطنون إلى خطورة هذه السياسة التى ستؤدى حتما إلى إبعادهم في وقت قريب.

وهو الأمر الذى جعل الأمير أَلْطُنْبُغا السلطانى الأشرفى نائب أَبُلُسْتَيْن[١] يعلن الثورة في ذى القعدة سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، قائلا: «لا أكون فى دولة حاكمها جركسى»[٢].

غير أن هذه الثورة لم يقدر لها النجاح، وفر ألطنبغا على أثرها إلى بلاد التتار[٣].

ولم يكد يمضى على هذه الثورة بضعة شهور حتى فوجئ السلطان برقوق فى رجب سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م بمؤامرة جديدة، دبرها بعض أمراء الترك الأشرفية لاغتياله، ولإجلاس الخليفة العباسى المتوكل على العرش[٤].

وقدر لهذه المؤامرة أن تفشل حيث اكتشفها برقوق قبل أن يشرع أصحابها فى تنفيذها، ثم حكم على أحد المؤتمرين بالموت، واكتفى بخلع الخليفة وسجنه بقلعة الجبل[٥].

وكان طبيعيًا أن يتعرض مثيرو الفتن من المماليك الأشرفية للنفى والتشريد من جانب السلطان برقوق، بعد أن ثبت له تدبيرهم لقلب نظام الحكم[٦].

وفى الوقت نفسه كشف اليلبغاوية عن نواياهم تجاه برقوق، بوقوفهم من أعداء الدولة موقفا يثير الشكوك، فقد حدث أن حضر سُولِى بن دُلْغَادِر التركمانى

---

(١) أبلستين: مدينة مشهورة من بلاد الروم، ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص٨٦.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٢٢٩.

(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٤٠٨٢، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٥٤.

(٤) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٤٧٥، السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص٨٣ - ٨٤.

(٥) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٠، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٧١.

(٦) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٧٩.

إلى حلب طائعا، فأنزله عنده يلبغا الناصرى نائب حلب، وكاتب السلطان برقوق ن أمره، فأرسل برقوق أوامره إلى يلبغا بالقبض على سولى وإرساله إلى القاهرة مقيدا، ولكن يلبغا بتدبير منه مكن سولى من الهرب ليلا[١].

روصلت هذه الأنباء إلى السلطان برقوق فاتهم يلبغا بالتواطؤ مع أعدائه[٢] وبادر بالقبض عليه بعد أن عزله عن نيابة حلب ثم أرسله إلى السجن بالإسكندرية ن رجب سنة ٧٨٧[٣].

وصاحب ذلك نشاط المماليك الأشرفية من جديد فى مؤامراتهم الهادفة إلى قلب نظام الحكم، فجربوا حظهم مرة أخرى فى أوائل سنة ٧٨٨هـ، واشترك فى هذه المؤامرة أحد كبار رجال القصر وقتئذ وهو تَمُرْبُغا الحاجب، ولكن المؤامرة اكتشفت قبل تنفيذها وانتهى أمر مدبريها بالقتل، ثم تتبع السلطان المماليك الأشرفية فشردهم قتلا ونفيا بعد أن تكررت محاولاتهم لإعادة أحفاد الناصر محمد ابن قلاوون إلى العرش[٤].

والواقع أن السياسة العنيفة التى اتبعها برقوق إزاء المماليك الأشرفية، أثارت كبارهم خارج مصر، فأعلن تَمُرْبُغَا الأشرفى نائب مَلَطْيَة المعروف بمنْطَاش الثورة على السلطان فى شوال سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م وانضم إليه المماليك الأشرفية بالمنفى[٥].

ورغم خطورة ثورة منطاش فإن السلطان برقوق لم يعرها بالاهتمام اللازم، واكتفى فى بداية الأمر بإطلاق سراح يلبغا الناصرى واستدعاه لمقابلته، ولما مثل

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٥٣١، ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٠٢.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٣٦١.
(٣) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٤٧٦، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١١٩.
(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣١٣، وليم موير: دولة المماليك ص١١٢.
(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة جـ٥ ص١٣٤ — ١٣٥، السخاوى: الذيل التام على دول الإسلام حوادث سنة ٧٨٩هـ.

بين يديه بالغ السلطان في إكرامه، فأنعم عليه بمائة فرس، وبالكثير من المال والثياب والسلاح، وقرر إعادته نائبًا لحلب من جديد[١].

ولم يكن برقوق يهدف من وراء إعادة يلبغا إلى منصبه من جديد، سوى تأييد اليلبغاوية له بعد العفو عن زعيمهم، وأملا فى إثارتهم ضد الأشرفية.

غير أن تطور الأحداث أثبت عكس ذلك، إذ سرعان ما أعلن يلبغا الثورة هو الآخر في طائفة من بنى جنسه، وانضم إليه منطاش الأشرفى وغيره من الأشرفية[٢].

على أن الأمر الجدير بالملاحظة أن يلبغا كان يعد العدة للثورة على السلطان منذ عودته إلى نيابة حلب ومما يؤكد ذلك أن السلطان برقوق حين أدرك ما يبيته يلبغا من الوثوب عليه، حاول استدراجه ليتخلص منه نهائيا، فبَعث إليه بهدية حوت عدة من الخيول وبعض الأقمشة النادرة[٣]، واستدعاه ليحضر إلى القاهرة، غير أن نائب حلب فطن لهذه الحيلة، واعتذر عن الحضور بحجة انشغاله فى إخماد ثورة التركمان ومنطاش[٤].

ومهما يكن من أمر فقد انضم إلى يلبغا سائر من كان فى المنفى من المماليك، وقبضوا على الأمراء الموالين للسلطان[٥].

وبعد أن استوثق يلبغا من قوته ومن مؤيديه، استولى على الشام بأسره[٦]، ثم سار إلى القاهرة على رأس جيش كبير، وساء موقف برقوق حين أحس بالغلبة «لانفلال جمهور العسكر عنه بعد أن أنفق فيهم الأموال الجزيلة» الأمر الذى جعله يضطر إلى الفرار من قلعة الجبل، ثم ظل مختفيا حتى قبض عليه يلبغا الناصرى

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٢، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٥٨.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٢، السخاوى: الذيل التام على دول الإسلام حوادث سنة ٧٩١هـ.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٥٩٠.
(٤) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣١٩.
(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٥٩٢ - ٥٩٣.
(٦) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣٢١.

وأرسله سجينا إلى الكرك[١] على أن يلبغا بعد احتلاله للقلعة فى جمادى الآخرة سنة ٧٩١هـ/ يونيه ١٣٨٩م، غدا صاحب الأمر والنهى فى شئون الدولة.

وكان طبيعيا أن يعلن يلبغا نفسه سلطانا على عرش مصر باعتباره صاحب النصر على برقوق، ولكنه رفض وأيد أحقية الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان فى العودة إلى عرشه، ولقب بالملك المنصور بعد أن كان يلقب بالصالح فى سلطنته الأولى[٢].

وهكذا عاد عصر نفوذ الأمراء من جديد، وغدت السلطنة وظيفة اسمية فى هذه الفترة، حيث أصبح يلبغا صاحب النفوذ المطلق فى الدولة[٣] غير أنه لم يقدر لسياسته النجاح خلال الفترة القصيرة التى سيطر فيها على شئون الدولة، فقد عمد منذ اللحظة الأولى إلى إعادة الضرائب التى أبطلها السلطان برقوق، مما كان سببا فى استياء الجماهير منه[٤]، كما أعطى أتباعه الإقطاعات الجيدة وقربهم منه، وأبعد حليفه منطاش وأتباعه و لم يعطهم من الإقطاعات إلا أقلها شأنا[٥] ولذا أخذ منطاش فى التدبير ضده، وسرعان ما التقى الفريقان فى منتصف شعبان سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م، وانتهى الأمر بهزيمة يلبغا، ثم قبض عليه وأرسل سجينا إلى الإسكندرية[٦]، وغدا منطاش صاحب السلطة الفعلية بعد أن صار أتابكا عوضا عن يلبغا، على أن سوء الحظ لازمه فى هذه الآونة، فقد اندلعت الثورة ضده بالشام غضبا لما فعله بيلبغا الناصرى[٧].

---

(١) ابن حجر: تاريخ المائة التاسعة ورقة ٧، السخاوى: الذيل التام على دول الإسلام، حوادث سنة ٧٩١هـ.

(٢) ابن دقمان: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٦، أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣٢٣ .

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٦٨.

(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٢١٧.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٣٣٦.

(٦) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣٢٤.

(٧) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٤٨٨، ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٧٦.

كما تمكن برقوق من خروجه من سجنه بالكرك، بمساعدة نائبها حسن الكُحْكُنى[١]، عملا بوصية يلبغا الناصرى، وكان قد «أمره إن سمع شيئًا من أمر منطاش أو تحركه فيبادر بالإفراج عن الظاهر»[٢].

على أن الظروف ساعدت برقوق فى هذه الآونة، إذ بايعه أهل الكرك في تاسع رمضان سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م[٣].

وظل برقوق ينتقل من نصر إلى نصر، وفى كل مرحلة من مراحل انتصاره، كانت تفد إليه جموع كثيرة تلتف حوله من العربان والتركمان مؤيدة له.

وفى القاهرة ذعر منطاش لهذه الأنباء، وحين أحس بالخطر يتهدده عقد اجتماعا ضم الخليفة المتوكل والعلماء والقضاة، وحاول إثارتهم ضد برقوق بأنه في سلطنته السابقة خلع الخليفة المتوكل والسلطان وأخذ أموال الناس بالباطل، ثم استصدر منهم فتوى بإعلان الجهاد ضد برقوق[٤].

وسرعان ما جمع منطاش جيشًا كبيرًا وزحف به إلى الشام، وهناك التقى الفريقان فى معركة طاحنة في المحرم من عام ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م[٥].

وهيأت الظروف الحسنة الفرصة لبرقوق، حيث تمكن من أسر الخليفة والسلطان وكبار الأمراء الذين رافقوا جيش منطاش[٦]، مما كان له أكبر الأثر في نفوس رجال منطاش، والتعجيل بإحلال الهزيمة بهم، حتى إن كثيرًا ممن كان معه بدءوا يتسللون للانضمام إلى الظاهر برقوق[٧].

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٨.
(٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٢٢٦.
(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص ٣٧٤.
(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٦٧٠.
(٥) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٩، أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣٢٥.
(٦) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٩١.
(٧) أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ١١ ص٣٦٩.

وفى الحال عقد برقوق اجتماعا ضم الخليفة والقضاة والأمراء وأعلنوا فيه تنازل السلطان حاجى لبرقوق عن السلطنة[١].

أما منطاش فقد فر بمن بقى معه إلى دمشق للاحتماء بها، وحين أراد برقوق تتبعه منعه من ذلك أمراؤه وقالوا له: «أنت سلطان مصر أم سلطان الشام؟ امض إلى مصر واجلس على تخت الملك، فتصير الشام وغيرها في قبضتك» فأعجب برقوق هذا الرأى، وسار مسرعا إلى القاهرة ومعه الملك المنصور والخليفة والقضاة[٢].

ولم يكد يعلن نبأ اقترابه من القاهرة، حتى تحولت المدينة إلى أفراح وتهيأت الجماهير لاستقباله[٣]، وعندما وصل إلى القاهرة اخترق شوارعها إلى القلعة فى موكب شعبى حافل[٤]، وفى القلعة جددت البيعة لبرقوق[٥].

كما أنه سمح للمنصور حاجى بالإقامة فى القلعة، وقد ظل مقيما بها إلى نهاية حياته[٦].

وهكذا عاد السلطان برقوق إلى عرشه مرة ثانية فى ١٤ من صفر سنة ٧٩٢هـ/ يناير ١٣٩٠م وامتدت سلطنته الثانية حتى سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م[٧].

وقد امتازت هذه المرحلة بجهوده المتواصلة فى تثبيت دعائم حكمه، فقرر أن يتخلص أولا من خصومه وعلى رأسهم منطاش الذى تركه فى دمشق حين عودته إلى القاهرة، ذلك أن بقاء منطاش بدمشق مستقلا جعل أمره يقوى في الشام بأسره.

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٩، ابن حجر: نفس المصدر والجزء – ص٣٩٢.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٣٧١.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٧٠٣.
(٤) ابن إياس: جـ١ القسم الثانى ص٤٣٠ – ٤٣١.
(٥) ابن الصيرفى: نزهة الفوس جـ١ ص٢٩٥.
(٦) أبو المحاسن: المصدر السابق جـ١٢ ص٤.
(٧) ابن شاهين الملطى: نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين ورقة ١٨.

وبدا لبرقوق أن يستعين بالمماليك اليلبغاوية في قتال منطاش ومن معه من الأشرفية، بسبب العداء المستحكم بين الفريقين وأن يجنى ثمار النصر عن طريق اليلبغاوية، حين يتيح لهم الفرصة ليأخذوا بثأرهم من منطاش، ولذلك أمر بالعفو عن الأمراء اليلبغاوية الذين سجنهم منطاش بالإسكندرية في الفترة التى حكم فيها مصر، وعلى رأس هؤلاء الأمراء يلبغا الناصرى الزعيم اليلبغاوى الذى كان قد اغتصب السلطنة من برقوق وسجنه بالكرك[١].

وحين حضر اليلبغاوية إلى برقوق خلع على عدد منهم وأقرهم نوابا بالشام، كما عين يلبغا في وظيفة مقدم للجيوش المتوجهة لقتال منطاش، واستحثه على الأخذ بثأره من منطاش قائلا له: «هو غريمك، اعرف كيف تقاتله»[٢].

غير أن الحوادث أثبتت عكس ما كان يتوقعه برقوق، فقد دأب يلبغا على مساعدة منطاش سرا، وحين استوثق برقوق من ذلك قبض على يلبغا وهو بحلب وقتله سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م[٣].

وظلت قوات برقوق تطارد منطاشا مدة طويلة، وانتهى الأمر بقتله في حلب سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م[٤].

على أن المتاعب والثورات التى واجهها برقوق فى سلطنته الثانية لم تكن كلها من جانب الترك، وإنما لازمها ثورات العربان في مصر والشام.

وكان أهم هذه الثورات هى ثورة الشريف العُنّابى بمصر سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م بالاشتراك مع موسى بن محمد شيخ العربان بالكَرَك، وتم الاتفاق بينهما على تنفيذ الخطة بعد خروج السلطان برقوق إلى دمشق لمحاربة تيمور لنك، غير

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٩٠، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٤٣٥.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٩.

(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٩١، ١٩٢.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٤٥٢، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٤٦٠.

أن السلطان برقوق تمكن من كشف المؤامرة، وقبض على الشريف العنابى وشريكه وحبسهما حتى ماتا[١].

وقد ظل برقوق يقظا لكل ما يحاك من مؤامرات حتى سكنت أصوات الترك، كما أنه ظل متتبعا لحركات العربان مواجها لهم فى شجاعة وبأس حتى كسر شوكتهم، وتكاد السنوات الأخيرة من حكمه تخلو من الثورة أو العصيان.

على أن الأمر الذى يسترعى النظر أنه لم تأت سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م وهى السنة التى توفى فيها السلطان برقوق، حتى كان كل نواب الشام وأرباب الوظائف بمصر من مماليك السلطان برقوق ومشترواته من الجراكسة[٢]، وهو الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى تثبيت دعائم الحكم فى سلطنة برقوق الثانية.

وعلى الرغم من الحروب والفتن التى سادت حكم السلطان برقوق لفترات طويلة، فإن ذلك لم يشغله عن القيام بالعديد من الإصلاحات الداخلية التى كان لها أكبر الأثر في تدعيم كيان دولته، فألغى كثيرا من الضرائب التى كانت تعانى منها الجماهير[٣]، كما أقام جسرا على النيل بين جزيرة أروى (الزمالك) وبين جزيرة الروضة من طرفها البحرى، وهو عمل عجز عنه كثير من الحكام السابقين، وقد عم النفع بهذا الجسر، فيسر للناس الحصول على الماء كما يسر لهم ركوب المراكب من القاهرة وغير ذلك[٤]، وأصلح خزائن السلاح بثغر الإسكندرية، وسوّر مدينة دمنهور لحمايتها من هجمات العربان[٥]، كما عمر الجبال الشرقية بالفيوم بالناس ليقيها من هجمات البدو، وعمّر زاوية البرزخ بدمياط[٦]، كما قام بتجديد عمارة القناة التى تحمل مياه النيل إلى قلعة الجبل، وأصلح الميدان تحت

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٤٧٠ - ٤٧١.
(٢) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣٣٠.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١١٠.
(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص١٦٩.
(٥) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٢٣٢.
(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١١٣ - ١١٤.

القلعة، وزرع به بعض النباتات كما غرس فيه النخيل، وبنى صهريجا للماء، كما بنى مكتبا يقرأ فيه أيتام المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل، وجعل عليه وقفا، كذلك أقام طاحونة بالقلعة، وسبيلا تجاه باب دار الضيافة وتجاه القلعة[١].

ولم تكن عناية برقوق فى هذا الشأن مقصورة على مصر وحدها، بل تعدتها إلى المدينة المنورة وأمهات مدن الشام، فبنى بركة في طريق المدينة المنورة يردها الحاج[٢]، كما قام بعدة إصلاحات بالحرم النبوى[٣]، كذلك أنشأ جسرا على ضفة نهر الأردن بالغور طوله مائة وعشرون ذراعًا فى عرض عشرين، وانتفع به المسافرون كثيرا[٤]، كما اهتم السلطان برقوق بالعلم فبنى مدرسته ببين القصرين، وجعل بها سبعة دروس قام بتدريسها علماء على المذاهب الأربعة، ثم جعل بها درسا للتفسير، ودرسا للحديث، وآخر للقراءات[٥]، غير أنه يؤخذ عليه شراهته في جمع المال الأمر الذى جعله يكثر من مصادرات الوزراء والولاة والكشاف وغيرهم من أرباب الوظائف[٦].

ثانيًا: حكومة السلطان فرج بن برقوق:

(٨٠١ — ٨١٥هـ = ١٣٩٩ — ١٤١٢م)

حين مرض السلطان برقوق مرض الموت وأحس بدنو أجله فى شوال سنة ٨٠١هـ/ يونية ١٣٩٩م، استدعى الخليفة المتوكل والقضاة والأمراء، وطلب منهم أن يحلفوا على السلطنة لأولاده من بعده، وهم: فرج وعبد العزيز وإبراهيم، فحلف جميعهم على ذلك، كما شكل برقوق مجلسا للوصاية على أبنائه وجعل

---

(١) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص١١٥، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٥٠٢.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٥٣٣.
(٣) الفاسى: العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين جـ٣ ص١٩٦.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ١، القسم الثانى، ص٥٥٣، المقدسى نزهة الناظرين، ورقة ٥١.
(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٦٨، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١١٣.
(٦) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٥٠٠.

رئاسة هذا المجلس للأمير الكبير أَيْتَمُش البَجَاسى أتابك العساكر وأن يكون الخليفة مساعدا له مع بقية الأمراء[١].

ولم يلبث برقوق أن توفى في نفس اليوم الذى تم فيه اختيار أعضاء مجلس الوصاية على أبنائه، وذلك في ليلة الجمعة ١٥ من شوال سنة ٨٠١هـ/ يونية ١٣٩٩م، وقد تجاوز عمره الستين[٢]، والواقع أنه لم يجرؤ أحد في الاجتماع الذى عقده برقوق أن يعترض على مبدأ الوراثة، وإن كانت الحوادث قد أظهرت فيما بعد بطلان هذا المبدأ.

على أنه إذا كان هذا المبدأ قد طبق بإصرار في دولة بنى قلاوون حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى، فإنه لم يعد له مكان في الدولة المملوكية الثانية فيما بعد[٣]، بل غدت السلطنة حقا مشاعا للأمير القوى، وصار استمرار السلطان في الحكم أو وثوبه إليه يتوقف على مدى مهارته الحربية، وعلى الكثرة العددية من الأعوان والأنصار، فضلا عما يتصف به من مهارة دبلوماسية، ومهما يكن من أمر فقد ولى فرج العرش فى ١٥ من شوال سنة ٨٠١هـ/ يونية ١٣٩٩م، بوصية من أبيه ولم يتجاوز من العمر عشر سنوات[٤]، ووجد الأمراء أن الفرصة سانحة للتسابق على إظهار نفوذهم ما دام السلطان طفلا، وسرعان ما بدأت المنافسات والمؤامرات تأخذ طريقها فى الأيام الأولى من سلطنة فرج، حيث امتنع الأمير سودون أمير آخور، عن حضور الاجتماع المقرر للأمراء مع السلطان بالقلعة، فقبض عليه وسجن بالإسكندرية[٥].

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٩٣٦ - ٩٣٧.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٥٢٦.

(٣) حكيم أمين: قيام دولة المماليك الثانية ص١٠٨.

(٤) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٢ ورقة ٥٠٧، ابن شاهين الملطى: نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين ورقة ١٨.

(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص٩٦٢، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص١٠ - ١١.

على أنه لم تكد تمضى بضعة شهور على تكوين مجلس الوصاية حتى دبت بين أعضائه روح الخلاف والاستئثار بالنفوذ، إذ ما لبث أن ثار أحد أعضاء مجلس الوصاية في أوائل سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م، وهو الأمير تَنَم نائب الشام، وانضم إليه نواب صفد وَحَمَاة وحلب وطرابلس(١).

وفى الوقت نفسه قام الأمير يَشْبُك الخازندار — العضو بمجلس الوصاية أيضًا — بتدبير مؤامرة ضد الأمير أَيْتَمُش الأتابك ورئيس المجلس، لتجريده من نفوذه، إذ أقنع السلطان الطفل أن يطلب من أيتمش ترشيده، لأنه صار فى غير حاجة إلى وصاية، ونجح يشبك في ذلك كما نجح في طرد أيتمش من القلعة فسكن بعيدًا عنها(٢).

غير أن أتباع أيتمش لم يرضوا بهذا الإجراء، وحنقوا على يشبك وأنصاره، فوقعت الحرب بين الفريقين وانتصر فيها يشبك سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م، وفر أيتمش بمن بقى معه إلى الشام، وهناك انضم إلى الثائرين ضد السلطان(٣)، وما لبث السلطان فرج أن خرج على رأس جيش قوى لقمع الثوار، وتمكن من إخماد الثورة كما تم له القبض على تنم وأيتمش ثم قتلهما(٤).

ورغم القضاء على هذه الثورة الخطيرة فإن السلطان فرج لم يعد يستشعر الأمان من جانب الجراكسة، وبدا له أن يعمل على تقريب المماليك الروم منه ويعتمد على عصبيتهم له، لأن أمه خُوَنْد شِيرِين كانت رومية(٥)، وعرف عنها التدخل في الأمور السياسية لمساعدة بنى جنسها والتعصب لهم(٦).

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٥٥٥.
(٢) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٢ ورقة ٥٠٧، السخاوى: الضوء اللامع جـ١١ ص٢٧٨.
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٥٥٨ – ٥٥٩.
(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص١٠٠ – ١٠٣.
(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص١١٧٧، السخاوى: الضوء اللامع جـ١٢ ص١٩.
(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٢١٣.

على أن ميل السلطان فرج إلى الروم جعل الجراكسة يشعرون بالخطر على وجودهم، ويَحْنقُون على فرج، الأمر الذى دفعهم إلى تونية لاجين بن عبد الله الجركسى، أقدم أمير جركسى بينهم[١]، غير أن المؤامرة اكتشفت قبل تنفيذها، وقبض على لاجين سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م[٢].

ولم يلبث كبار الأمراء الجراكسة بالشام أن أعلنوا الثورة على السلطان سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م وهم الأمير جَكَم نائب دمشق، وشيخ المحمودى نائب طرابلس ويَشْبك الشعبانى الخازندار، وزحفوا بجيوشهم إلى القاهرة لخلع السلطان، وفى الطريق عند السعيدية[٣] دارت بين الفريقين معركة طاحنة فر على أثرها السلطان بمن معه إلى القاهرة، كما وقع الخليفة والقضاة أسرى فى يد الثوار[٤].

وفى القاهرة تهيأ السلطان للقاء الثوار القادمين فى أثره، والتقى الفريقان مرة أخرى بالقرب من قلعة الجبل، وكاد الثوار أن يستولوا على القلعة، غير أن حسن الحظ لازم السلطان فى هذه المعركة، إذ دب الخلاف بين الثوار، وبدأ كثير من أمرائهم فى التسلل للانضمام إلى السلطان فرج[٥]، وإزاء هذا لم يكن فى وسع زعماء الثورة سوى الفرار بمن بقى معهم إلى الشام[٦] وهكذا لم يقدر للأمير جكم أن يخلع السلطان ليتولى هو بدوره السلطنة في مصر، والواقع أن الهدف من وراء هذه الثورات جميعها هو إقصاء فرج عن العرش، وتولية أمير جركسى يحيز لبين

---

(١) ابن حجر: تاريخ المائة التاسعة لوحة ٥٤، أبو المحاسن: المصدر السابق جـ١٣ ص٢٧.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٦٢٧.

(٣) السعيدية: من القرى القديمة التى اندثرت، وكانت تقع بأراضى ناحية العباسية بين بلبيس والخطارة بالشرقية، كما كانت ضمن مراكز البريد في طريق الشام، وقد أسماها الظاهر بيبرس البندقدارى السعيدية نسبة إلى ولده السعيد محمد بركة خان، القلقشندى: صبح الأعشى جـ١٤ ص ٣٧٧، المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٣٠٣، محمد رمزى: القاموس الجغرافى جـ١ القسم الأول ص٧٠.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص١١٦٢ - ١١٦٣.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٢٩٣.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٣٢٠.

جنسه ولا يقدم عليهم غيرهم من الطوائف المملوكية الأخرى، كما كان يفعل برقوق فى سلطنته.

ومهما يكن من أمر فقد استمر فرج فى سياسة تقريبه للماليك الروم على حين لم ينثن عزم الجراكسة عن تدخلهم فى سياسته مطالبين إياه بتغيير سياسته نحو الأمراء الروم.

وما لبث الموقف أن انفجر بين السلطان وبينهم حين طلبوا منه القبض على أمراء المماليك الروم وإبعادهم لئلا يستأثروا بالسلطة من دونهم، كما اتهموه بتعمد الإعراض عنهم وتواطئه مع الأمراء الروم ضدهم، غير أنه أبى الاستجابة لمطالبهم، وإذ تأكدوا من إصراره على موقفه ثاروا ضده وأضربوا عن الخدمة السلطانية[١]، فى حين تكتل عدد منهم أمام القلعة لمنع من يقصد إليها لمقابلة السلطان[٢]، وعلى حين تطورت الأمور إلى هذا الحد، اجتمع به بعض الأمراء ليصلح الأمر، فلم يتمكن، وأصر الجراكسة على إبعاد الروم، ولم يسع السلطان إلا الرضوخ لمطلبهم، فبعث إليهم بالأمير تَغْرِى بَرْدِى والأمير أَرْغُون، فقبضوا عليهما، وبعثوا بالأمير تغرى بردى منفيا إلى القدس[٣]، ورغم أن السلطان كان يقصد إخماد الفتنة ريثما تتاح له فرصة القضاء على زعماء المعارضة، إلا أنهم «عادوا إلى ما هم عليه من الخلاف بعد قليل»[٤].

ويبدو وكأن السلطان أحس بثقل وطأة الجراكسة عليه، كما بدأت تساوره المخاوف والشكوك، وحين أحس الجراكسة بحالة القلق المسيطرة عليه «دسوا إليه سعد الدين بن غراب كاتب السر، فخيله منهم حتى امتلأ قلبه خوفًا، فلما علم ابن غراب بما هو فيه من الخوف، حسن له أن يفر فمال إليه»[٥].

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص١١٧٤.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٧٣٢.
(٣) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص١١٧٦.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ٥ جـ١، القسم الثانى، ص٧٣٣.
(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص١١٧٧.

وما لبث السلطان أن هجر القلعة وترك العرش في ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م واختفى في بيت سعد الدين بن غراب[١].

على أن الأمور لم تكن مهيأة لترشيح أى من الأمراء للسلطنة في هذه الأثناء، وذلك لوجود الخلاف بين الحزب الذى يتزعمه الأمير يَشْبك الشعبانى الدوادار، وبين الحزب الآخر الذى يتزعمه الأمير بِيبَرْس الأتابك قريب السلطان.

ولم يكن في وسع القوى المتصارعة إلا أن تضع محل السلطان فرج أخاه عبد العزيز وذلك إنقاذا للموقف من كارثة محققة.

فكان أن بايعه الأمراء بالسلطنة في الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ/ فبراير سنة ١٤٠٥م[٢].

على أنه لم يكن له فى السلطنة غير مجرد الاسم، والمتصرف في شئون الدولة بيبرس الأتابك زعيم الحزب المناوئ للجراكسة الذين يتزعمهم يشبك الشعبانى الدوادار.

واعتقد الجراكسة أن سلطنة عبد العزيز ربما أتاحت لهم فرصة التخلص من نفوذ الأمراء الروم أو إضعاف سيطرتهم.

ولكن سرعان ما استبد بالأمور من دونهم بيبرس الأتابك و «قويت شوكته على يشبك... فعز عليه وعلى أصحابه ذلك»[٣].

وبدا ليشبك هو وأتباعه أن يعملوا على عودة فرج ثانيا للقضاء على نفوذ بيبرس وأتباعه، وكان لدى يشبك علم بوجود فرج عند ابن غراب، ولذلك أخذوا يمهدون لعودته إلى العرش بالاتفاق سرا مع ابن غراب، الذى رسم لهم

---

(١) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٢ ورقة ٥١٦، ابن شاهين الملطى: نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين ورقة ١٨.

(٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص٢١٢. ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٧٣٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٧٤١.

بدوره خطة رجوع فرج إلى العرش، وتتلخص هذه الخطة في «أنه يُخرج إليهم السلطان، ويعيدوه إلى الملك، لينفردوا بتدبير الأمور»[١].

وبعد قتال نشب بين أنصار فرج وبين أنصار أخيه عبد العزيز، تمكن يشبك الشعباني من الانتصار على بيبرس الأتابك وتم القبض عليه، وعاد فرج إلى العرش مرة ثانية في ليلة الخامس من جمادى الآخرة سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م[٢].

وأصبح يشبك الشعباني أتابكا عوضا عن بيبرس، كما رُقي أتباع يشبك إلى إمريات مختلفة.

على أن الفترة الثانية من سلطنة فرج والتي استمرت نحوا من سبع سنوات (٨٠٨ – ٨١٥هـ = ١٤٠٥ – ١٤١٢م) اتصفت بالاضطراب وسوء التدبير، فقد استهلها فرج بقتل أخويه[٣].

كما كثرت الفتن والمؤامرات في الشام، فثار الأمير جكم نائب حلب في جمادى الثانية سنة ٨٠٩هـ/ ١٤٠٧م، وبويع بالسلطنة ولقب بالملك العادل، كما ضربت السكة باسمه، وخطب له في حلب، وأطاعه جميع النواب بالشام وخطب له بها كذلك[٤].

غير أن سلطنة جكم لم تستمر أكثر من خمسة أشهر، حيث لقي مصرعه في إحدى المعارك مع التركمان[٥].

لم يتمكن فرج من إخضاع بلاد الشام بعد ذلك، فسرعان ما تحالف نَوْرُوز نائب دمشق وشيخ نائب طَرَابُلُس، وأعلنا استقلالهما بالبلاد الشامية سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م، وبذلك خرجت النيابات الشامية مرةً أخرى عن طاعة

---

(١) المقريزي: السلوك جـ٤ القسم الأول ص٨.
(٢) ابن إياس: المصدر السابق ص٧٤٠.
(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٣٥٢، ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ٢ ص٢٢٦ .
(٤) ابن حجر: نفس المصدر والجزء ص٣٥٦، أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ٢ ورقة ٥١٦.
(٥) المقريزي: السلوك جـ٤ القسم الأول ص٤٥ – ٤٦.

السلطان، وعلى الرغم من أن السلطان فرج كان يقود الحملات إلى الشام كل عام ليستعيد نفوذه فيها، فقد ظلت في قبضة نَوْرُوز حتى نهاية حكم فرج[١].

ومهما يكن من أمر فقد اضطربت أحوال مصر نتيجة تكرار هذه الحملات التى تعود في كل مرة دون أن تحقق الغرض منها.

كذلك اضطربت أحوال السلطان في الفترة الأخيرة من حكمه، وانقلب على الجراكسة مماليك أبيه فقتل منهم في يوم واحد مائة جركسى في شوال سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م[٢].

وبالرغم من اضطراب الأمور على هذه الصورة فإنه قرر الخروج في هذه الأثناء لقمع الثائرين بالشام.

وقبل أن تغادر جيوشه القاهرة دعاه سوء تدبيره إلى تعقب الجراكسة مرة أخرى، ظنا منه أن في إزالتهم توطيدا لدعائم ملكه، فأعمل فيهم وفى أمرائهم القتل، حتى بلغ عدد من قتل في هذه الفترة نحوا من سبعمائة رجل[٣].

وبدا كأنما الأحوال وقتئذ تنذر بزوال حكم هذه الدولة وتمهد للفئات الطامعة في السلطنة أن تصل إليها، إذ فضلا عن سوء الحكم فإن الوباء والقحط الذى انتشر في عهد السلطان فرج جعل الناس يتمنون زوال سلطنته، كما أن الإقدام على قتل الجراكسة بهذه الكثرة وهم عماد الدولة، كان في الحقيقة من أعظم الأسباب في زوال دولة الناصر فرج[٤].

ولذا عندما غادرت جيوشه القاهرة، تسلل منهم عدد كبير بسبب سوء معاملته لهم وانضموا للثائرين بالشام، كما أعلن عدد من الأمراء العصيان وانضموا إلى زعماء الثورة بالشام[٥]، ثم تقدم هو بمن بقى معه والتقى بالثوار بالقرب من

---

(١) ابن طولون: إعلام الورى ص٣٧ - ٣٨.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٤ القسم الأول ص١٩٢.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٤٨٩ - ٤٩٠.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ٢ ص٤٩٠ أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٢ ورقة ٥١٩.

(٥) المقريزى: السلوك جـ٤ القسم الأول ص١٩٩ - ٢٠٠.

دمشق، وسرعان ما حلت به الهزيمة وقبض عليه ثم قتل في شهر صفر سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢[1].

وبذلك زالت دولة الناصر فرج وانتقلت السلطة إلى السلطان المؤيد شيخ المحمودى.

(١) العينى: السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ص٢٥٩ — ٢٦٠، ابن شاهين الملطى: نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين ورقة ١٨.